المشارك الأول: كهينة عازم
باحثة في علم الاجتماع
kahina-azem@ummto.dz

المشارك الثاني : ربيعة رميشي
أستاذة محاضرة أ
rabiasocio@gmail.com

النظرية السوسيولوجية بين الواقع و المأمول: ميشال كروزيه نموذجا

ملخص:

تلعب النظرية دورا أساسيا في تنمية العلوم و البحوث العلمية فهي المصدر الأساسي للباحثين و المنظرين، لأنها تساعد في توحيد و توضيح ما يتم التأكيد عليه حول الواقع المدروس. و تمنح الانسجام للميدان المعرفي بفضل ما تقترحه من تفسيرات التي يحتمل أن تظل محل اختبار دائم محك الوقائع و الأحداث. و كما تقوم على تسهيل الاتصال فيما بين الباحث و موضوعه، و بالتالي يهدف بحثنا إلى بيان مدى مساهمة النظرية الاجتماعية في بناء البحث العلمي و فهم الحياة الاجتماعية انطلاقا من المقاربات السوسيولوجية المتعددة، و من بين النظريات المساهمة في علم الاجتماع التنظيم و العمل نجد نظرية التحليل الاستراتيجي« لميشال كروزيه » لفهم واقع المنظمات و تأثيرها على المجتمع.

الكلمات المفتاحية: النظرية الاجتماعية – نظرية التحليل الاستراتيجي – مفهوم نسق الفعل الملموس – مناطق الارتياب – السلطة.

Abstract :

Theory plays an essential role in the development of science and scientifique research. It is the primary source of researchers and theorists, because it helps to consolidate and clarify what is emphasized about the studied. Harmony is granted to the field of knowledge through the explanations it proposes, which are likely to remain a constant test of facts and events. As it facilitates communication between the researcher and his subject, our research therefore aims to show the extent to which social theory contributes to the building of scientific research and the understanding of social life based on multiple sociological approaches. Among the theories contributing to sociology are organization and work, the theory of strategic analysis by “Michel Crozier” to understand the reality of organizations and their impact on society.

Keywords: social theory – theory of strategic analysis – concept of concrete action pattern – regions of suspicion – power.

المقدمة :

تعد النظرية ضرورة ملحة للباحث الاجتماعي، لذا لا يمكن التخلي عنها أو التقليل من أهميتها لما أنها تمثل الأرضية الرئيسية لتأسيس العمل البحثي و كما تمثل رصيدا لبناء المعرفة العلمية، و الشرط الضروري لانطلاق التفسير و التحليل. لذا يرى العلماء أن التقدم العلمي لا يمكن أن يتم إلا إذا أنجز على مستوى نظري، بيد أن المعرفة العلمية ليست مجرد تراكم للمعارف، ذلك أن صياغة النظريات العلمية و تصوراتها و تنظيماتها انما تتحكم فيها مجموعة من الفرضيات و المفاهيم التي يسميها توماس كوهين "THOMAS KUHUN " في كتابه الشهير " بنية الثورات العلمية".

و في هذا الإطار، فإن التقدم في البحث العلمي و التنظير هي مسألة متلازمة، لأن التقدم العلمي لا يمثل تجميع للحقائق فحسب، بل هو عملية تبرز في التغيير النوعي في بنية الأنساق النظرية، لأن الإعتماد في البحث على الجانب الميداني (الإمبريقي) دون ضبط للجانب النظري مثلما هو الحال في علم الاجتماع الأمريكي الذي يفتقد إلى الأسس النظرية في تفسير الظواهر الاجتماعية و تصبح بنية الأنساق النظرية جامدة و فقيرة.

1- إشكالية المقال:

للنظرية الاجتماعية أهمية بالغة في البحث العلمي، قد ترافق الباحث و السير في جواره من لحظة اختيار الموضوع إلى مرحلة تحرير النتائج النهائية، لهذا يرى موريس أنجرس النظرية " بمثابة البوصلة للمكتشف ... و باختصار إنها توجه البحث " (أنجرس، 2004، صفحة 55) لأن النظرية لها علاقة بمشكلة البحث بما أنها تسمح بتوضيحها و توجيهها لأن كل فرع علمي له نظريات لفحص موضوع الدراسة و تستخدم النظرية كدليل لإعداد البحوث العلمية نظرا إلى ما توفره من تأويلات عن الواقع (Quellet, 1982, p. 268)

و على هذا الأساس، يحدد الباحث في علم الاجتماع نوع الإطار النظري الذي يتبعه، و كما يحدد هذا الأخير(نوع الإطار النظري) للباحثين الاجتماعيين نوع الأسئلة و أجوبتها عند محاولتهم فهم أية ظاهرة أو قوة اجتماعية معينة. و تختلف النظريات في علم الاجتماع باختلاف توجهاتهم و انتماءاتهم الاجتماعية و الثقافية و الايديولوجية و بالتالي تمثل الأطر النظرية طرقا مختلفة لإدراك و فهم العالم الاجتماعي من حولنا.

وتميل الأطر النظرية في علم الاجتماع لأن تقع في طائفتين (جامع، 2010، صفحة 39)، الطائفة الأولى تهتم بعلم الاجتماع الكلي Macro sociologie الذي يرتكز على النظام الاجتماعي على أن الفرد يولد في نظام اجتماعي قائم بالفعل نظام مستقل يحدد سلوك الفرد و يقيده، و من ثم يتخذ الفرد سلوكا يفرضه عليه المجتمع، فالقيم و المؤسسات و الثقافة الخاصة بالمجتمع تحدد سلوك الفرد و أدواره في الحياة، تلك القيم و الثقافة التي تكتسب في عملية التنشئة الاجتماعية. و بطبيعة الحال يبدوا هذا الجانب النظري جبريا قهريا حيث يظهر سلوك الإنسان من ذلك البناء الاجتماعي الشامل و من قدرته على تحديد ذلك السلوك. أما النوع الثاني الذي يهتم بعلم الاجتماع الجزئي Micro sociologie أي يهتم بالفعل الاجتماعي، بحيث يرى أن الإنسان بما أنه ذو عقل، فهو قادر على الفكر الواعي و قادر على الوعي بالذات. فالفعل الإنساني ليس مجرد رد فعل لمؤثرات خارجية و إنما هو نتيجة لمعاني و نظرات و دوافع و تفسيرات يقوم بها الفرد في موقف اجتماعي. و يعد هذا النوع أن الحقيقة الاجتماعية ليست إلا "خاصية متغيرة" أبعد ما تكون عن الثبات و الحتمية وتسود فيها المفاهيم التطوعية و الإرادة الحرة و الأعمال العفوية.

و من بين المقاربات السوسيولوجيا التي جاءت فيما بين تلك الطائفتين نجد نظرية ميشال كروزيه و ارهارد فريدبرغ كنموذج نظري بين الواقع و المأمول، اللذان حاولا فهم المجتمعات الصناعية من خلال الفعل الذي يحدث داخل المنظمات.

و بناءا على ما سبق تنتابنا التساؤلات التالية:

- ما مفهوم النظرية؟ و فيما تتمثل أهميتها و وظائفها؟
- و ماذا نعني بنظرية ميشال كروزيه و إرهارد فريدبرغ ؟ و ماهي المفاهيم الأساسية فيها ؟ و فيما تتمثل إسهاماتهما؟ و ما هي الانتقادات الموجهة إليهما ؟

2- مفهوم النظرية في علم الاجتماع:

تشغل النظرية الاجتماعية في علم الاجتماع اهتمام كبير، و مع التسليم بوجود تباينات كثيرة ارتبطت بتحديد العلم بين علماء الاجتماع و موضوعه، و لإدراك العلاقات الجدلية بين ما هو عام و جزئي، و ما هو اجتماعي و فردي، و ما هو ثابت و متغير، فهي تدرس هذه الجوانب معا بالقدر الذي يساعد على فهم كل منهما و تحليلهما و محاولة التنبؤ بهما (عبد المعطي، 1990، صفحة 17) .

فالنظرية في علم الاجتماع كما في غيره من العلوم الأخرى، المحك العلمي الذي يفسر كافة الحقائق التي يمكن ملاحظتها بأساليب و وسائل للوصول إلى نتائج ملموسة و واقعية، و كما يجب أن يتصف التأصيل النظري بدرجة عالية من المنطق تساعدنا على اختبار الفروض التي توضع من أجل تفسير كل قضايا البحث و جوانبه المختلفة (جونز، 2010، صفحة 10)، و من ثم تساعد النظرية في الوصول إلى نوع من المفاهيم و المقولات و القضايا و الافتراضات التي من خلالها تواجه مشكلات الدراسة.

و من خلال ذلك، فقد عرفها موريس أنجرس بأنها " مجموعة من المصطلحات و التعريفات و الافتراضات لها علاقة ببعضها البعض و التي تقترح رؤية منظمة للظاهرة. و ذلك بهدف عرضها و التنبؤ بمظاهرها" (أنجرس، المرجع السابق، صفحة 54).

و يتصور البعض أن النظرية ما هي إلا فكرة أو تصور مجموعة من التصورات وضع مسبق لتفسير شيء ما و بالتالي فهي تأمل، و يضن البعض الآخر بأن النظرية لا تختلف كثيرا عن الفرض العلمي أي قضية تحمل تفسيرا مبدئيا أو حلا مقترحا لموضوع أو ظاهرة أو مشكلة معينة، و قد نجد البعض الآخر يعتبر النظرية بمثابة مبدأ أو قانون علمي أي بوصفها قضية دقيقة تختزل سلسلة من الحقائق العلمية أو تختصرها في صيغة رياضية. و في حين يقرر البعض الآخر أن النظرية تمثل نموذجا أو تقترب من عمليات صياغة الأنماط بوصفها نوع من التنميط يساعد على تحديد العلاقات المتداخلة بين الخصائص أو ظواهر يحاول الباحث توضيحها و تفسيرها، و في الواقع أن النظرية حسب " نيكولا تيماشيف " تمثل أرفع المستويات جميعا" (جونز، المرجع السابق، صفحة 10)

3- وظائف النظرية:

تقوم النظرية العلمية بوظائف متعددة و متنوعة، يمكن تلخيصها فيما يلي (نفس المرجع، صفحة22-25):

- توجيه النظرية نحو الموضوعات المثمرة للبحث العلمي.
- تلخيص الوقائع و توضيح العلاقات بينها.
- التنبأ بالوقائع.
- تحديد الثغرات في معلومات الباحث.

- تقوم النظرية بمهمة ترشيد التطبيق.

4- أهمية النظرية الاجتماعية:

للنظرية الاجتماعية أهمية في بناء البحث العلمي بما أنها تمثل" رحلة بين المشكلات و النتائج" (كريب، 1994، صفحة 22) لأن البحث العلمي ينطلق من جملة من المعلومات التي تتخللها اشكاليات ما، و تتجه إلى صياغة إبيستمولوجيا معرفية للمشكلات المثارة، و من هذه المشكلات ينتقل بعد ذلك إلى رصيد من الفرضيات التي تكون القاعدة لكل عملية النظرية. و من الواضح أن الوصول إلى هذه المرحلة (النظرية) تستدعي المرور بعدة مراحل، فالبحث العلمي ما بين المعطيات الإمبريقية و السير نحو النظرية و التوقف عند اقتراح الفرضيات العلمية مقابل استبعاد الفرضيات غير العلمية حتى يتسنى الإقتراب من الإشكاليات.

و لكن ما أن يصل الباحث إلى النظرية، حتى يكون أمام جدول متناسق من الحقائق المعروفة. و بهذا المحتوى و الوضوح للنظرية، يستطيع أن يتبين كيف تم التنظيم و بناء تلك الحقائق، كما أن النظرية تفسر هذا البناء المعرفي و تمدنا بنقاط مرجعية تسهل على الباحث الانطلاق في البحث عن بنى معرفية جديدة و حقائق جديدة. أما فيما يتعلق بمهمة النظرية، فقد كتب عليها العالم الاجتماعي الشهير"جورج هومانز" George C Homans في كتابه عن "طبيعة العلوم الاجتماعية" الذي نشره سنة 1967 أن كل علم له مهمتان رئيسيتان، الأولى هي الاكتشاف، و الثانية التفسير، فمن خلال المهمة الأولى يمكن الاستدلال على ما إذا كان هذا العلم علما حقيقيا أم لا، و من خلال المهمة الثانية يمكن الاستدلال على ما إذا كان هذا العلم ناجحا أم غير ناجح (جامع،2010، صفحة 35 – 36)، و يمكن القول أن مهمة النظرية هي عبارة عن مركب استنباطي انتظامي أي ذو طبيعة منطقية تتحدد فيه سلامة القرارات المستنبطة. لأن النظرية في الواقع نادرا ما تبنى في خيال الباحث و إلا أصبحت نظرات كما كان الحال بين العلماء الاجتماعيين فيما قبل القرن العشرين، فالنظرية تعتمد على ظواهر واقعية، و تثبت صحتها عند تعريضها للاختبار التجريبي العلمي.

5- المقاربة النظرية في علم الاجتماع "ميشال كروزيه" نموذجا:

نظرا لما تحمله النظرية الاجتماعية لأهمية بالغة في تفسير الوقائع المجتمعية، سوف نقوم بعرض نظرية التحليل الاستراتيجي لميشال كروزيه كنموذج عن دور النظرية و أهميتها في تفسير و نقل و تحليل الواقع الاجتماعي كما هو، على ضوء دراسات ميشال كروزيه للمجتمعات الصناعية و ما يحدث من صراعات و نزاعات و التي يرجعها إلى ضرورة فهم المنظمات التي كانت سببا في عرقلة التسيير الحسن لهذه المجتمعات. و في نظريته ركز على البعدين: البعد الأول الاستراتيجي الذي ينطلق من الفاعل لاستيعاب النسق أو المنظمة و يسمى بالنوع الثاني ميكرو سوسيولوجيا Micro sociologie (من الجزء إلى الكل) ، أما البعد الثاني النسقي يبدأ من المنظمة للوصول إلى الفاعل ماكرو سوسيولوجيا Macro sociologie (من الكل إلى الجزء) (شاوش، 2019، صفحة 158).

1. نبذة تاريخية لكل من "ميشال كروزيه" و "إرهارد فريدبرغ":

ميشال كروزيه عالم اجتماع فرنسي، ولد سنة 1922 و توفي سنة 2013 درس الحقوق ثم انتقل إلى أمريكا أين أعد دراساته في الدكتوراه حول ظاهرة البيروقراطية التي تعد من بين اهتماماته و كذلك ظاهرة السلطة من خلال الدراسات الميدانية التي قام بها في بعض المنظمات الفرنسية و قد قام بعرض نتائج هذه الدراسات في كتابه " الظاهرة البيروقراطية" (1963) .

أما " إرهارد فريدبرغ " هو عالم اجتماع نمساوي و باحث في مركز علم الاجتماع المنظمات مع كروزيه، حيث قاموا بصياغة نظرية التحليل الاستراتيجي التي تعتبر من بين النظريات السوسيولوجيا الأساسية في علم الاجتماع التنظيم و العمل.

2. نظرية التحليل الاستراتيجي:

انطلقت نظرية التحليل الاستراتيجي من مسلمات التالية: أولا الفرد كعنصر محوري في المنظمة، ثانيا اعتبار المنظمة كبناء اجتماعي و ليس كمعطى طبيعي (Crozier, 1977, p. 55) يستجيب فقط لحتميات تنظيمية. فالمنظمة لا تستطيع أن تفرض نفسها على الأفراد، لأنهم يتمتعون بقسط من الحرية في إمكانية التصرف و القيام بالمناورات و لعب الأدوار، و هذه الحرية النسبية التي يتمتع بها الفاعلون تمنح لهم نوعا من الاستقلالية التي يستغلونها في بناء استراتيجيات و علاقات السلطة التي يبادرون بها في إطار المنظمة من أجل تحقيق أهدافهم.

3. المفاهيم الأساسية لنظرية التحليل الاستراتيجي:

تطرق "كروزيه" في بناء نظريته التحليل الاستراتيجي و تفسيرها لفهم المنظمة و ما يحدث داخلها، و لفهم الشؤون الانسانية انطلاقا من ثلاثة مفاهيم محورية (شاوش، نفس المرجع، صفحة 158 – 164) وهي:

- **مفهوم نسق الفعل الملموس:** بصفة عامة يقصد منها مجموعة من العلاقات التي تتشكل بين الأفراد من خلال تصرفاتهم بصفة رسمية أو غير رسمية قصد بناء قواعد من أجل حل المشاكل الملموسة في عملهم، و ذلك طبقا لمصالحهم و أهدافهم.
- **منطقة الإرتياب أو الشك:** تشكل القوانين و الهياكل الرسمية حسب "ميشال كروزيه" أهم المصادر التي تنبثق منها مناطق الارتياب في المنظمة (Crozier, op.cit, pp78–79). و على الرغم من أن المنظمة مقننة بقواعد و بإجراءات عدة من أجل تنظيمها و تسييرها إلا أنها من المستحيل تقنين كل مجالاتها، و لهذا نجد هناك مناطق الارتياب التي يستغلها الفاعلين فيها لكسب مزيدا من السلطة من أجل حماية مصالحهم و لتأثير على المنظمة و أطراف أخرى فيها.
- **السلطة:** تعتبر السلطة من بين المفاهيم التي ركزا عليها كل من "كروزيه" و "فريدبرغ" في تحليلهما للمنظمة، لأنها تشكل أساس الفعل الجمعي الذي يحدث

في المنظمة. فالسلطة المهمة والفعلية في المنظمة هي تلك السلطة التي تحصل نتيجة العلاقة القائمة بين شخصين أو أكثر في إطار عملية إنجاز مهام معين أو قصد تحقيق أهداف محددة. و السلطة المهمة هنا ليست تلك المقتصرة على السلطة الهرمية التي يتمتع بها المسؤولين و إنما تلك التي تبرز من خلال العلاقات، التفاعلات، اللعب و التبادلات التي تحدث بين مختلف الأطراف في المنظمة. و من مصادر السلطة نجد: الخبرة، التحكم في علاقات المنظمة مع المحيط، الاشتراك في شبكات الاتصال، التحكم في القواعد التنظيمية.

6- اسهامات كروزيه و فريدبرغ في تطبيق نظريتهما في علم الاجتماع:

- ساهم كل من كروزيه و فريدبرغ مساهمة فعالة في إثراء علم الاجتماع التنظيم، و كما تشكل نظرية التحليل الاستراتيجي إحدى الأدوات النظرية و المنهجية التي أصبح من الممكن الاستعانة بها لدراسة المنظمات، و كما قدمت نظرية التحليل الاستراتيجي الكثير بالنسبة لنظريات التنظيم لأنها تبنت وجهة نظر ديناميكية اتجاه المنظمة.
- بينت نظرية التحليل الاستراتيجي بأن نمط تسيير المنظمة يختلف عن نمط التسيير الذي حدده النموذج التايلوري و الفيبيري ككيان ميكانيكي عقلاني. فالمنظمة حسب كروزيه و فريدبرغ تعتبر كيانا اجتماعيا تسودها الديناميكية، و كما بينت النظرية أيضا كيف يمكن للمنظمة أن تخلق عوائق لنفسها بصفة غير مقصودة عن طريق تسنينها للقوانين التي كان هدفها هو التسيير الفعال للمنظمة، و في الواقع أصبحت تلك القوانين ماهي إلا عائقا للتطور و تخلق ما يسميه كروزيه "الحلقة المفرغة" التي تشل كل نشاطات المنظمة و تعيق المجتمع بأكمله.

7- الانتقادات الموجهة لنظرية التحليل الاستراتيجي:

و على غرار النظريات السوسيولوجيا الأخرى، فنظرية التحليل الاستراتيجي لا تخلو أيضا من النقائص، و لهذا نجدها قد وجهت لها عدة انتقادات، و من أهمها:

- تركيز النظرية على نمط العلاقات التي تنسج بين الفاعلين و التي ماهي إلا مجرد مناورات و ألعاب و لم يول الاهتمام لروابط الأخرى كالتضامن و الاتحاد. و كذلك تقليص المنظمة إلى مجرد مجال للمناورة و التلاعب من أجل السلطة.
- اهمال النظرية لمبدأ اللامساواة في علاقات السلطة التي تحدد طبيعة العلاقات القائمة بين الأفراد في المنظمة.
- إلى جانب نظرية كروزيه المتمثلة في التحليل الاستراتيجي من أجل حصول الأفراد على السلطة، تأتي نظرية "رونو سانسوليو" التي قدمت بالبعد الثقافي الذي يعتبر من أهم عوامل المؤثرة على المنظمة، و يتجسد ذلك في الدفاع عن الهوية في العمل (Sainsaulieu, 1977).

الخلاصة:

حسب ما تقدم، فإن النظرية الاجتماعية في عالمنا اليوم باتت علما نقديا يسعى إلى تحليل التفاعلات اليومية الواضحة و الكامنة و وظائفها المتعددة. و قد ترتبط النظرية بعلاقات القوة الفكرية من جهة، و ثقافة المجتمع من جهة أخرى، و بالتالي أصبحت (النظرية) الفاعل الرئيسي في تغيير الفكر و الواقع بما أنها تعمل في إطار وجودها المجتمعي و تمتعها بالقدرة على تشخيص الواقع و الحاضر و التنبؤ بالمستقبل، ذلك الذي يجعل منها خطابا قادرا على فك الشفرة كل ما هو قائم في الوجود الاجتماعي المعاش، فإن الهدف المحوري لها يتمثل في تحرير الذات و تنويرها.

و في هذا الإطار، تمثل المقاربة النظرية السوسيولوجية " لميشال كروزيه " و " إرهارد فريدبرغ " حول التحليل الاستراتيجي التي عالجت موضوع المنظمات في المجتمع الفرنسي انطلاقا من ظاهرة البيروقراطية التي يراها كحلقة مفرغة، تعاني منها الكثير من المنظمات. و قد تشكل نظريته إحدى الأدوات النظرية و المنهجية التي لا يمكن الاستغناء عنها أثناء دراسة المؤسسات و المنظمات سواء في علم الاجتماع أو في العلوم الاجتماعية الأخرى التي تهتم بموضوع التنظيم و التسيير. إلا أنها لا تخلو من النقائص و الانتقادات التي يمكن للباحثين الآخرين الاستفادة منها، و لهذا تعتبر النظرية الاجتماعية القاسم المشترك في الحياة اليومية و العلمية و الفكرية.

المراجع:

باللغة العربية:

1- إيان كريب. (1994). *النظرية الاجتماعية : من بارسونز إلى هابرماس*. (محمد حسين غلوم، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.

حميد شاوش. (2019). *مدخل إلى علم الاجتماع المنظمات*. تيزي وزو: الأمل للطباعة و النشر و التوزيع.

2-عبد الباسط عبد المعطي. (1990). *اتجاهات نظرية في علم الاجتماع*. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

3-فيليب جونز. (2010). *النظريات الاجتماعية و الممارسة البحثية* (الإصدار 1). (محمد ياسر الخواجة، المترجمون) القاهرة: مصر العربية للنشر و التوزيع.

4-محمد نبيل جامع. (2010). *علم الاجتماع المعاصر و وصايا التنمية*. الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة.

5-موريس أنجرس. (2004). *منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية*. (بوزيد صحراوي،كمال بوشراف، سعيد سبعون، المترجمون) الجزائر: دار القصبة للنشر.

باللغة الفرنسية:

6- Crozier, M. (1977). *L'acteur et le système.* Paris: Seuil.

7- Quellet, A. (1982). *Processus de recherche :Une approche systémique.* (éd. Presses de l'Universitédu Québec). Sillery: Presses de l'Université de Québec.

8-Sainsaulieu, R. (1977). *L'identité au travail.* Paris: PENSP.